القطار السريع

قصة بقلم محمد السولامي

رفع الصغير سعيد بصره عن الارض بعد ان تمعن فيها مليا ، فتنهد بمرارة كأنه يئس من ايجاد حل لمشكلة عويصة ثم التفت الى امه التي كانت تشتغل بجمع الثياب وترتيبها في الحقائب وسألها : « لماذا لا يركب الناس كلهم في القطار الجديد ما دام سيوصلهم بسرعة؟»

كانت الام قد القت بنفسها في بحر من الاسئلة تتلخص في ما هي البدلة التي يجب ان ترتديها في القطار ؟ اهي هذه الخضراء ام تلك السماوية ام ...؟ فعز على الصغير الا يجد سؤاله آذانا صاغية ، فقطب جبينه وجر رجيله نحو أبيه الذي كان يحلق ذقنه في الحمام .

ـ بابا ... الازلت مصمما على اننا سنركب القطار الجديد ؟

ـ ماذا يا بني ؟ قالها الاب دون ان يزيل عينيه عن المرآة .

ـ الا زلت مصمما على اننا سنركب القطار السريع ؟

ـ نعم .. سنحاول ، لانك واخوتك تريدون ذلك .

ـ ولماذا يا بابا لا يركبه الناس كلهم مادام سيوصلهم بسرعة ؟

ـ ايه ؟؟

على هذه الكلمة انفتحت شفتا الاب المشغول بشاربه الذي اودى به شروده الى قص جزء منه مما اوقعه في مشكل : هل يحلق الشارب كله؟ لا .. يمكن لانه لم يعتد ذلك ، ولان الاصدقاء سيسخرون منه وقد ألفوه زمنا طويلا ، المعلم عبد السلام صاحب الشارب الكثيف .. اذن فليتركه هكذا مشوها .. ولكن هذا ايضا لا يمكن ، خصوصا وانه سيسافر الى طنجة حيث اصدقاء اخيه من كل صوب وحدب ..

التفت الى صغيره كأنه يريد ان يريه مشكلة .. ولكن الصغير كان مشغولا بسؤاله فلم يعر انتباها لذلك ، بل اسرع نحو غرفة جدته ظانا ان اباه بالتفاتته وعبسه كان يريد ان ينتهره .

ترى .. ماذا يفعل ؟ من يسأل ؟ جدته ؟ لن تجيبه فهي لا تتحدث في النهار الا لسبحتها .. ايذهب الى جده ؟ ابدا .. لن يذهب ، انه لم يعد يحبه ، بل انه يكرهه .. في الصباح فقط حين جاء ساعي البريد يحمل البرقية التي تنبىء بأن عمه المثري سيقيم حفلة بمناسبة نجاح ابنه، وحين انفقت الاسرة على السفر في القطار السريع ، قام الجد يعارض الركوب في هذا القطار بحجة انه جديد لازال لم يتمرن على سكة الحديد، وانه سريع جدا .. والعجلة من الشيطان .. اكتفى سعيد ـ بعد ان يئس من ايجاد الجواب على سؤاله ـ بأن يرمي به في ركن من ذاكراته ، وان يخرج للشارع ليعلن امام الرفاق من أصدقاء واعداء ، الرحلة الهامة التي تمتاز هذه المرة بأنهم سيركبون فيها القطار الجديد المسمى بالسريع .

استقر يعقوب الصغير بين الثانية والثالثة وارتاح الكبير على السادسة ، فصرخت الساعة معلنة الثانية والنصف فانتصب الاطفال وهم في اتم استعداد للسفر يطالبون الاب بالخروج حالا من البيت حتى لايفوتهم القطار .. ولكن الجد كعادته دائما عندما يقدم الصغار رأيا ما يعارض ، « الحاج عبد الرزاق قال عند صلاة الظهر بأن القطار لا يخرج من المحطة الا في الثالثة والربع ، والمحطة كما تعلم مسير عشر دقائق ، فلماذا سترمي بأولادك في هذه الحرارة مدة ثلاثة ارباع الساعد » .

هز الاب رأسه موافقا على كلام الجد وانجه صوب الاولاد يطمئنهم على انه بعد شرب الشاي واستعداد امهم نكون الثالثة قد دقت فيخرجون.

« الثالثة .. الثالثة .. لن تدق اليوم هذه الثالثة » هكذا كان سعيد يقول في نفسه وهو يقلب عينه بين امه التي تربعت لتقديم الشاي، وابيه الذي اخرج مذكرته واخذ يبحث عن قلمه اتضائع بين جيوبه ، وجدته شبه المريضة المنزوية في ركن بالغرفة تحدث كعادتها سبحتها ، وجده الذي اصبح حجر عثرة في كل طريق يريد الصغير واخوته شقها ، والذي شرع في صلاة ركعات الاجر بمناسبة السفر ، ثم الصغار الذين رفضوا الجلوس اضرابا ضد الجد العنيد .

لم يبق للثالثة الا خمس دقائق .. ولكن هذه الدقائق الخمس طويلة، عريضة ، عنيدة .. احتار الصغير ولم ينقذه من حيرته الا قول امه : « لم يبق الا ان نخرج فالوقت قد ازف ... »

استعدت الاسرة واراد الاب ان يخرج لينادي سيارة اجرة ، لكن الجد رفض بحجة انهم اربعة زيادة على الاولاد . ثم ان المسافة قصيرة.

كانت الساعة اعلنت الثالثة والربع حين وصل افراد الاسرة الى المحطة الصغرى القريبة من البيت ، اسرع الاب الى شباك التذاكر ..

ـ خمس تذاكر من فضلك في القطار السريع .

ـ معذرة يا سيدي ، هذه المحطة لا يقف فيها القطار السريع .. خير لك ان تنتظر ساعة وربع الساعة موعد القطار العادي ان كان لابد لك من السفر هذا اليوم .

ـ شكرا .. شكرا .

اخذ الصغير يسلط نظرات عتاب على ابيه الذي كان يلقي على الاسرة بمصاب في راسه صاحب التذاكر .

كان الجد يبتسم ابتسامة الظفر وهو يردد : لم اكن ارغب في هذا السفر .. كان قلبي يحدثني بسوء ـ اما الجدة فكانت تنظر الى الاطفال بتثاقل علها تفهم منهم ما قاله والدهم ، في الوقت الذي كانت فيه الام تضرب كفا بكف ندما على ما اضاعته من وقت في الفخر على الجارات هذا الصباح .

لماذا لا يركب الناس كلهم القطار الجديد ما دام سيوصلهم بسرعة ؟ انطلق هذا السؤال من ذاكرة الصغير سعيد واخذ يردد مع نفسه : الان الناس يفعلون مثلنا فيأتون الى مكان غير مكانه وفي وقت غير وقته .

محمد السولامي

كلية الاداب ـ فاس (المغرب)